التربية السلوكية
في ضوء القرآن الكريم

■ أ. د. مصطفى رجب
Mostafaragab1999@yahoo.com

يعرَّف السلوك في علم النفس الحديث بأنه: أخلاق الفرد وتعامله مع الآخرين. وهذا الفهم يأتي من استخدام كلمة السلوك في الحياة اليومية، فنقول: فلان سلوكه حسن.

ويعرَّف من وجهة نظر أخرى بأنه: كل ما يقوم به الفرد ويظهر للآخرين. وهذا التعريف لا يتضمن السلوك غير الظاهر، فالإنسان له سلوك ظاهر يظهر للآخرين، وسلوك لا يظهر للآخرين: كالتفكير مثلاً.

وهناك من يرى أن السلوك هو كل ما يصدر عن الكائن الحي (الإنسان) من نشاط: سواء أكان قوياً يلاحظه الآخرون، أم ضعيفاً لا يلاحظه الآخرون، وقد يلاحظه الفرد أثناء تفاعله مع البيئة.

وقد ذهب أكثر علماء النفس إلى أن السلوك هو النشاط الإنساني الذي يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو عمل: سواء أكان إرادياً أم غير إرادي، وظاهراً أم باطناً، وعليه: فالسلوك هو نشاط صادر عن الإنسان: سواء أكان هذا النشاط ظاهراً ملاحظاً أم غير ملاحظ، وإرادياً أم غير إرادي.

السلوك في القرآن الكريم:

السلوك في القرآن الكريم يعبَّر عنه بمصطلح (العمل)، وهو بهذا يقابل السلوك في علم النفس الحديث؛ فالعمل الصالح يقابل السلوك المرغوب فيه، والعمل غير الصالح يقابل السلوك غير المرغوب فيه. وورد لفظ (العمل) ومشتقاته في القرآن الكريم عدة مرات، ومن أمثلة ذلك: قوله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]. فالمتأمِّل في الآيتين السابقتين يخلص إلى أن المقصود بالعمل هو النشاط الصادر عن الإنسان، ويترتب على هذا النشاط جزاء عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو منهج المفسرين؛ فيفسر الصابوني العمل الصالح بالفعل فيقول: «أي: من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنثى».

وأوضح القرآن الكريم أن مصدر السلوك للمسلم هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وبهذا يختلف مصدر تلقي السلوك عن باقي المدارس الفلسفية والتربوية الأخرى التي تجعل المجتمع أو الفرد مصدراً لتلقِّي السلوك. وبيَّن القرآن الكريم أن السلوك يتأثر بكلٍّ من عوامل الوراثة والبيئة، ولكنه تأثير ليس حاسماً؛ فقد يحدث ما يضاد الوراثة والبيئة معاً - سيأتي بيان ذلك لاحقاً - فالسلوك ثمرة الفهم الواعي والعقل الراجح.

ويؤكد القرآن الكريم أن السلوك الظاهر لا يدل بالضرورة على الحالة الداخلية للإنسان، ومن ذلك: قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، فهذا المخلوق الذي يصوِّر

نفسه بأنه خلاصة من الخير والتجرُّد والحب والترفُّع والرغبة في إفاضة الخير والبر والسعادة، والذي يعجبك صوته وحديثه ويُشهد اللهَ على ذلك لزيادة التأثير والإيحاء؛ فهو في حقيقته تزدحم نفسه بالخصومة فلا موضع فيها للحب والخير ولا مكان للإيثار، فهو يتناقض ظاهره وباطنه ومظهره ومخبره حتى إذا جاء وقت العمل ظهر ما كان يبطن وانكشف المستور وتم فضح حقيقته.

فالآية الكريمة تبيِّن ومن خلال التفسير أن هناك أناساً في الظاهر تتوسَّم فيهم الطيبة والعمل الصالح في أقوالهم وأفعالهم، وواقعهم خلاف ذلك.

ومما يؤكد هذا المنهج قوله - تعالى - عن فقراء المسلمين: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فالآية الكريمة تبين لنا أن ثمَّة فقراء يخيل إلينا أنهم أغنياء؛ لأنهم لا يطلبون الصدقة ولا يمدون أيديهم إلى أحد.

العوامل التي يتأثر بها السلوك في القرآن الكريم:

بيَّنت الدراسات النفسية الحديثة أن السلوك الإنساني يتأثَّر بعاملَي الوراثة والبيئة، والقرآن الكريم يعترف بالوراثة والبيئة ولكن لا يراها العامل الحاسم والمطلق في السلوك، بل القرآن الكريم يعلي من الفهم الواعي والعقل الراجح ويراه العنصر الحاسم في السلوك.

ومما يدل على عدم التأثير المطلق لعاملَي الوراثة والبيئة في السلوك ما يلي:

١ - في قصة نوح - عليه السلام - مع ابنه الكافر، والذي وصفه القرآن الكريم بأنه ليس من أهل نوح - عليه السلام - بل الأحرى أن يعلن براءته منه، قال - تعالى -: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، فلو كان لعامل الوراثة دور حاسم في السلوك الإنساني لكان ابن نوح - عليه السلام - من الذين آمنوا معه، ففي الآية نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وإعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا شائع في الاستعمال.

٢ - وفي قصة امرأة فرعون المؤمنة والتي كانت تعيش في بيئة فاسدة ومنحرفة، ولكنها سلكت سلوك الإيمان والعمل الصالح، قال - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]، وهي نموذج عالٍ في التجرُّد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه المعوقات.

ولا يُفهَم من الآية الكريمة أن يذهب الإنسان إلى البيئة الفاسدة؛ فالإسلام يحرص على أن يتجنب الإنسان البيئة الفاسدة بل يدعوه إلى إصلاحها.

وعليه؛ فلا يحق لأحد أن يتذرَّع بالبيئة حتى يسلك سلوكاً منحرفاً، ومن باب أَوْلى أن لا يتذرَّع بسلوك آبائه وأجداده من قبل.

التفكير:

أحد العوامل المؤثرة في السلوك الإنساني التفكير فيما يعرض للإنسان من أمور في الحياة حتى يحقق الإنسان الهدف المنشود بعيداً عن تحكيم الأهواء والعواطف.

وأشارت آيات قرآنية عديدة إلى أناس لا يفكرون وجعلتهم بمستوى الأنعام. قال - تعالى -: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وهؤلاء الذين لا يعقلون ولا ينفعهم تفكيرهم غير جديرين بصفة الإنسانية، بل عدَّهم القرآن بمستوى الدواب بل أضل. قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فالتفكير له أثر بالغ في السلوك الإنساني، واختيار السلوك الأفضل والمناسب والمتفق مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أقسام السلوك الواردة في القرآن الكريم:

يمكن تقسيم السلوك الإنساني الوارد في القرآن الكريم إلى عدة أقسام، وهذه الأقسام تتداخل مع بعضها، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض، فمن الممكن أن يكون سلوك الفرد فردياً انفعالياً باطنياً. وفيما يأتي أقسام السلوكيات الواردة في القرآن الكريم.

١ - السلوك الفطري:

وهو السلوك الإنساني المرتبط بالفطرة التي فطر الله الناس عليها. قال - تعالى -: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فالفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، وهي خاصة في الإنسان جسداً وعقلاً، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليّه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية.

٢ - السلوك المكتسب:

وهي الخبرات والمعارف التي يتعلَّمها الإنسان بالممارسة بعد مولده. ويدل على هذا السلوك قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

٣ - السلوك الظاهر:

وهو السلوك الذي يباشره الإنسان ويظهر للآخرين؛ كالصلاة والحج والصوم والجهاد في سبيل الله تعالى، قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وقال - سبحانه -: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

٤ - السلوك الباطن:

وهو السلوك الذي يباشره الإنسان ولا يظهر للآخرين، وقد يستدل على آثاره بشكل مباشر أو غير مباشر، مثل: سلوك الذكر، والتفكر، قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وقوله - تعالى -: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

٥ - السلوك العقلي:

وهو سلوك يستند إلى العقل، وهذا ما يميز الإنسان على سائر المخلوقات؛ لأنه مناط التكليف. والقرآن الكريم حثَّ على استخدام العقل، ومن ذلك: قوله - تعالى -: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. يقول صاحب الظلال في تفسير الآية: فالغاية هي أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذي يعرفون، وقد نعى الإسلام على الذين لا يستخدمون عقولهم فقال - تعالى -: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨].

ففي الآية الكريمة تحقير للكافرين؛ إذ ليس في نداء الصلاة ما يوجب الاستهزاء، فاستهزاؤهم دليل على سخافة عقولهم.

٦ - السلوك الانفعالي:

وهو سلوك ناشئ عن المشاعر والأحاسيس والانفعالات، وهو سلوك يمكن ملاحظته وقد لا يُلاحظ.

ومن ذلك: سلوك الخوف عند نبي الله موسى - عليه السلام - حين رأى الأفعى وهي تهتز. قال - تعالى -: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

٧ - السلوك الفردي:

وهو سلوك يقوم به فرد، ومن ذلك: قوله - تعالى -: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

٨ - السلوك الجماعي:

وهو سلوك تقوم به جماعة إما في وقت واحد أو في أوقات مختلفة، ومن ذلك: قوله - تعالى -: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

فالآية الكريمة تتحدث عن سلوك أصحاب القرية في مخاطبة الأنبياء وهو سلوك جماعي وليس فردياً.

انحراف السلوك في القرآن الكريم:

الإنسان مفطور على الإسلام، والإسلام هو دين الخير والفضيلة، ولكن الإنسان يُقبِل على الشر والرذيلة أحياناً، وإقباله هذا يكون بالاكتساب من البيئة التي يعيش فيها، لا سيما إذا كانت هذه البيئة تتيح له ممارسة سلوكيات منحرفة دون أن تزجره وتنهاه عنها. ومن أسباب انحراف السلوك عن الطريق المستقيم كما ورد في القرآن الكريم:

١ - الابتعاد عن الإيمان الصحيح:

إذا ابتعد الإنسان عن العقيدة الإسلامية انحرف سلوكه، وابتعد عن الطريق المستقيم: فالانحراف الذي يحدث في السلوك غالباً هو نتيجة البعد عن الصراط المستقيم، ونتيجة اضطراب العقيدة والفكر والمشاعر، وإذا صحت العقيدة حسنت العبادة، قال - تعالى -: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]. فحياة الإيمان هي حياة البشر والاستقامة، وحياة الكفر هي حياة العسر والتعثر والضلال. والآية الكريمة تصور حياة جماعة يمشون على وجوههم أو يتعثرون وينكبُّون على وجوههم... ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات منتصبة القامات في طريق مستقيم لهدي مرسوم.

٢ - انحراف الفطرة:

الفطرة المنحرفة سبب لوقوع مختلف السلوكيات الخاطئة، ومن مظاهر انحراف الفطرة: الكفر والشرك بالله تعالى. قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فالكافر والمشرك يقع في كثير من السلوكيات الخاطئة والمنحرفة عن منهج الله سبحانه وتعالى، فأبانت الآية الكريمة أن صاحب كل كبيرة في مشيئة الله - سبحانه وتعالى - إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليها، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى.

٣ - غياب المنهج الإلهي عن الواقع العملي:

إن غياب المنهج الرباني عن واقع التطبيق العملي في حياة الأفراد والجماعات يؤدي إلى انحراف في سلوك الأفراد وانتشار الفساد؛ فمنهج الإسلام يُعدُّ ضابطاً لسلوك الإنسان فهو يحوي العقوبات والمعززات ومظاهر السلوك الحسن والقبيح، وغيابه ينذر بسوء عاقبة في الدنيا والآخرة، قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. [الزخرف: ٣٦ - ٣٧].

فأصل فساد الخلق مخالفة الخالق والتنكُّب عن طريقه، وصلاح الأمر في اتِّباع الحق والتزام طريقه. والحق هو الوضع الثابت الذي خلق الله عليه مخلوقاته أو أرادها أن تكون عليه؛ لأنه ليس من مخلوق في الدنيا إلا خلقه الله وحده، وليس من مخلوق في الدنيا إلا جعله الله - سبحانه وتعالى - على وضع معين ودبَّر أمره بكيفية معينة.

٤ - ضعف الإيمان:

على المسلم أن يتعهَّد إيمانه ويحاسب نفسه وينظر إلى أسباب نقصانه ويتحاشاها ويتلمس أسباب الزيادة والنماء كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم.

ومما يثبت أن ضعف الإيمان سبب في انحراف سلوك الإنسان حديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث قال: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]. فالحديث يدل دلالة واضحة على أن ضعف الإيمان هو أحد أسباب ارتكاب السلوك المنحرف والخاطئ.

ومن أهم أسباب زيادة الإيمان: العلم؛ فالاستزادة منه سبب في زيادة اليقين والمعرفة، وكذلك العمل الصالح وذكر الله - سبحانه وتعالى - وتلاوة كلامه وآياته والعمل على النظر في آياته ومعجزاته فكلها أسباب لزيادة الإيمان وتقويته.

وأسباب انحراف السلوك الإنساني كثيرة جداً، منها: عدم إدراك الإنسان غايته من الحياة وهي عبادة الله سبحانه وتعالى. قال - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومن الأسباب أيضاً عداوة الشيطان المستحكمة للإنسان. قال - تعالى - محدثاً على لسان الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. وكذلك الصحبة الفاسدة ورفاق السوء. قال - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، فجاء في الآية الكريمة لفظ (فلاناً) للتجهيل ليشمل كل صاحب سوء يصدُّ عن سبيل الرسول ويضلُّ عن ذكر الله، فهذا الشخص إما أن يكون شيطاناً أو عوناً للشيطان ليقود الإنسان إلى مواقف الخذلان.

(١) صحيح مسلم: ١ / ٧٦، حديث ٥٧.